ابراهيم الثاني

للمـــازني

أخيراً يهتدي المازني إلى نفسه ويمضي على نهجه ، ويستغل أفضل مزاياه .

و « أخيراً » هذه تعني سنة ١٩٢٩ يوم أخرج المازني كتابه « صندوق الدنيا » وإن كان قد نشره متفرقاً من قبل في صورة مقالات .

وإذا علمنا أن المازني بدأ ينشر سنة ١٩١٠ أو حواليها، فاننا نسأل : وفيم إذن أنفق أكثر من خمسة عشر عاماً قبل أن ينهج نهجه الأصيل ؟

والجواب أنه أنفقها أولاً في التمهيد والتحضير لدوره الأخير ، وأنفقهـا ثانياً في التهيئة العامة للأذهان والأذواق مع زميله العقاد ، مع بُعـد ما بين الرجلين في الطبيعة والاتجاه .

والواقع أنني لم أعجب لشيء عجبي لاقتران هذين الاسمين في الأذهان فترة طويلة من الزمان ، وهما يكادان يتقابلان تمام التقابل في الطبيعة الفنية والاحساس بالحياة .

فالعقاد موكل بالفكرة العامة والقاعدة الشاملة ، والمازني موكل بالمثـال المفرد والحادثة الخاصة ، وبينما يصنع العقـاد يده مباشرة على مفتـاح القضيـة أو الفكرة أو الشخصية ، يمضي المازني في استعراض أجزائها ودقائقها مستلذا هذا الاستعراض مشغولاً به عن كل ما عداه . وفي العقـاد ثورة وزراية وسخط على النقـــائض والعيوب الكونية والاجتماعية والنفسية ، ولكنه مع هذا واثق بالحياة متفائل على وجه العموم ، وفي المازني قلة مبالاة وسخـرية واستخفاف ، وشيء من التشـاؤم يبطنه بالفكاهة والشيطنة !

ومن الأمثلة الحاسمة التي يهيئها الاتفاق ، فتصور الفارق الأصيل بين اتجـاهي

التفكير وطريقتي النظر والتعبير ، إجابتا المازني والعقاد على سؤال في مجلة ، عنوانه « هل أخلاقنا في تقدم » .

فأما العقاد فقد سارع بوضع القاعدة ـ على طريقته ـ ونصب الميزان وهو يقول:

« نعم الأخلاق المصرية في تقدم ، أو أن الرجاء في تقدمها أقرب من اليأس ، وربما منعنا أن نرى دلائل التقدم أن الرجة عنيفة ، وأن الغبار كثير حول الأقدام وفوق الرؤوس . فاذا انجلى غداً عرفنا ما خطوناه ، وما لا يزال أمامنا أن نخطوه .

« ومن الواجب أن نعرف مقياس التقدم قبل أن نقيس ونضبط القياس . فمقياس التقدم عندي هو احتمال المسئولية ، لأنه الفارق بين كل متقدم ومتأخر بلا استثناء.

« ... وإذا كانت المسؤولية ، مقياس التقدم الأوحد فالحرية إذن هي شرط التقدم الذي لا غنى عنه بحال من الأحوال ، لأنك لا تفرض المسؤولية عن إنسان مكتوف اليدين ، ولا بد من حرية حتى تكون مسؤولية ، ولا بد من مسؤولية حتى يكون تقدم في الحاضر والمستقبل .

« هذه الفوضى التي نراها في أخلاقنا هي مظاهر الحرية الأولى ، أو هي أول مفاجأة من مفاجآتها ... الخ »

وهكذا يضع المسألة في صورة قضية منطقية . ثم يأخذ بالوزن والقياس .

وقد تخالف العقاد أو توافقه ، لكنك مضطر أن تنتظر أولاً في « مقياس . التقدم » أو في « مفتاح الفكرة » الذي يلخص الرأي ، وتوزن به الجزئيات .

وأما المازني فراح يستعرض المظاهر الخلقية ويحكم عليها واحداً بعد الآخر حسبما رآه ، فقال :

« كيف تصلح أخلاق أمة والبيت فاسد ، والتفاوت بين الرجل والمرأة شديد والتربية سيئة ، والمدرسة عقيمة النهج ، والقدوة العامة على أسوإ ما يمكن أن تكون ، ولا تقدير للتبعات والمسؤوليات ، ولا احترام للحقوق ولا اعتراف بوجود حدود ، ولا ثقة بانصاف . . . الخ » .

وهكذا استعرض كل مظهر وكل جزئية ، وحكم عليه على انفراد .

ويلاحظ أن المازني ذكر « تقدير التبعات والمسؤوليات » التي ذكرها العقاد ، ولكن هذا جاء هنا عرضاً ومظهراً ، بينما جاء هناك قاعدة وأصلاً .

وعلى هذه الوتيرة تسير طبيعة العقاد وطبيعة المازني في عملها الفني ، بل حياتها كذلك ، والفرق كما ترى بين الطبيعتين بعيد .

وبينما كان العقاد يسير على نهجه الأصيل منذ نشأته في النقد الأدبي ، وفي دراسة الشخصيات والسير ، ويتهيأ للمكانة الملحوظة التي بلغها فيما بعد في دراسة التراجم والمذاهب الفنية ، ويقطع مراحل التحضير إلى مرحلة النضوج الأخيرة على بصيرة واستواء . كان المازني يتنكب عن نهجه ، ويسير في غير طريقه ، وهو يتناول هذه الموضوعات التي يتناولها العقاد يومذاك ، إلى أن اهتدى إلى أفضل مزاياه في عام ١٩٢٩ وقبله بقليل ! وكان ذلك خيراً للأدب بلا جدال .

وقد أخرج المازني ـ وهو في التيه ـ كتاب « حصاد الهشيم » ، وكتاب « قبض الريح » ، والقارىء يعجب لتشابه الموضوعات في هذين الكتابين مع موضوعات كتابي « الفصول والمطالعات » للعقاد ولتشابه الاتجاه في الرأي كذلك ، وإن بقي الفارق الكبير بين الطبيعتين ، حتى في هذا الطور المختلط ، الذي لم يكن المازني فيه يفطن إلى حقيقة مزاياه .

ولا نحب أن نظلم المازني فنغفل عن عوامل الزمن والبيئة التي كانت تحتم عليه هذا الاتجاه في ذلك الزمان ، فأغلب الظن أن الحالة الفكرية وفهم الأدب وتقدير الفنون في هذا الوقت لم تكن تسمح بظهور أديب يكتب على نهج المازني الأخير ، الذي بدأ بصندوق الدنيا سنة ١٩٢٩ ، أو قبلها بقليل .

وحسبنا لمعرفة هذه الحالة وتقدير الجهد الذي بذله المازني والعقاد في تصحيح مقاييس الأدب والفنون العامة ، أن نعلم شيئاً عن المشكلات التي كانا يعانيان شرحها وهي اليوم في حياتنا الأدبية من البديهيات . فمسائل مثل : وحدة الشعر هي القصيدة

لا البيت ، تطور اللغة وأساليبها بتطور الزمان ، التصوير الفتوغرافي في الفنون لا يعد عملاً فنياً . . . إلى آخر هذه البديهيات ، كانت في ذلك الحين من أعوص المشكلات !

ولقد قرأت بعطف كبير قول المازني في « حصاد الهشيم » :

« ما مصير كل هذا الذي سودت به الورق ، وشغلت به المطابع ، وصدعت به القراء ؟ إنه كله سيفنى ويطوى بلا مراء . فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق ، وتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم . ومن الذي يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها؟ من الذي يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا أيديهم في هذه الجلاميد ؟ وبعد أن تمهد الأرض وينتظم الطريق ، يأتي نفر من بعدنا ويسيرون إلى آخره ، ويقيمون على جانبيه القصور شاهقة باذخة ، ويذكرون بقصورهم وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها سامقة رائعة ، والذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد!

« فلندع الخلود إذن ، ولنسأل « كم شبراً مهدنا الطريق ؟ » .

وهذه الفكرة هي التي أوضحها العقاد من قبل أيضاً في مقدمته لكتاب « الغربال » لميخائيل نعيمة سنة **١٩٢٣** في هذه الفقرات :

« وإني لأعرف كيف يستحق النعيمي التهنئة بجرأته التي ظهر بها في مقالاته وصراحته التي تقدم بها إلى غربلة الناس والكتب والآراء ، لأنني أعرف الآراء المستحدثة ، وما تجلبه على أصحابها من الغضب والملاحاة في بلاد العالم أجمع ، وفي بلاد الشرق خاصة . أعرف أن ليس أضيع عندنا من مجترىء على تمزيق غلاف الأجنة عن جوارحه ، واستنشاق هوائه بأنفه ؛ وأن ليس أخسر صفقة في موازيننا من عمل داع إلى جديد ، لأن أنصار الجديد قليل في كل جيل ، والفاهمين منهم لما ينصرون أقل من القليل . ولايزال هؤلاء الأنصار قلة متوارية أو كاشفة كمتوارية، حتى إذا كثروا وانتشروا والتف شملهم ، واشتد أزرهم ، ضاع المقياس الذي يقاس به فضل الداعي ، ونسي عمله ، وبدا للخالفين من بعده كالذي يحمل المعول الكبير

يضرب في الهواء ، ويغضب به على الفضاء ، ويتصبب عرقاً في غير شيء . ذلك لأن السد الذي كان أمامه ، والذي كان لا يبرح قائماً قاعداً يضربه ، ويفني عافيته وحظوظه وآماله في هدمه يكون قد عفا في ذلك الحين ، وتمهد مكانه الطريق سهلاً سوياً تدوسه السابلة ، ولا تتعثر فيه أقدام الأطفال ؛ ولا يبقى لهمن الأثر إلا ذلك الجهاد المغموط البادي للعين في تلك الصورة العابثة الهازلة ـ أو قل : المضحكة ـ صورة الضارب بالمعول في أحشاء الفراغ . . . ولا والله ما هي بعبث هازل ، ولا ضحك ضاحك ، ولكنها صعقات وأهوال وأشجان . أما جزاء ذلك الداعي الشهيد على ما أسلف من الخير ، وبذل من مهجة القلب ، فمن ذا الذي يعنيه أن يذكره ؟ لعله يبقى مدخراً في ذمة « أبولون » وناهيك بما في ذمم الأوثان المعبودة من هضم وسعة » .

أدركني عطف كبير وأنا أقرأ هذه السطور وتلك ، وأراجع جهد المازني وجهد العقاد في التمهيد نحو ربع قرن من الزمان ، وودت لو كان المازني بجانبي حينئذ ، لأقول له :

« لا يا مازني ، إن نصيبك ونصيب زميلك لأكبر من مجرد التمهيد ، فلقد بنيت بعد ذلك — على طريقتك — بنايات جميلة نابضة بالحياة في « إبراهيم الكاتب ، وإبراهيم الثاني ، وفي صندوق الدنيا ، وفي الطريق » كما أقام هو — على طريقته — بنايات معمورة الأركان في التراجم الأخيرة على الخصوص ! » .

★ ★ ★

اهتدى المازني إلى خصائصه وسار أخيراً على نهجه ، فما هذا النهج وما تلك الخصائص بالتفصيل ، بعد ما تقدم من الاجمال .

في المازني فكاهة ودعابة وسخرية ، وقد يفهم بعض الذين تصدوا للنقد بلا عدة وافية أنها غاية خصائصه ومزاياه . وهي منها ، ولهاقيمتها في تلوين أدبه بلونه الخاص ، ولكني لا أراها في مجموعها خير ما في المازني الفنان ؛ فكثيراً ما تقوم

دعابات المازني على نوع من سوء التفاهم المتعمد ، والمفارقات الكثيرة في الحركات الذهنية التي تقابل مفارقات الحركات الحسية في بعض أدوار « لوريل وهاردي » المشهورة ، ولو عدل هذا « التوليف » الخاص لفقدت كل مزيتها ، وليس هذا من الدعابة العميقة الأصيلة ، ولا يمنع هذا أن يصل بعضها إلى القمة حين يلاحظ المازني المفارقات الانسانية والنفسية ، وينسى العبث بالحركات الذهنية والمغالطات اللفظية ، وأبرز ما يكون ذلك حين يضبط نفسه أو نفس سواه ، وهي تغالط نفسها لتهرب من مواجهة موقف ، أو تتوارى من الكشف في وضح النهار أو تدعي فضلاً ليس لها وتنكر سيئة عملتها ! وللمازني في هـــذا نماذج قليلة نسبياً ، ولكنها من أمتع وأقوى ما تحويه الآداب .

أما مزية المازني الكبرى فهي طريقة إحساسه بالحياة :

إذا كان بعض العيون يأخذ الحياة جملة ، فعين المازني تأخذ الحياة بالتفصيل ، وهي عين مفتوحة واعية فاحصـــة ، لا تفوتها حركة ولا يندّ عنها لون ، وهي تستعرض الحيــاة والمناظر والنفوس والأشياء ، ولا تشبع من النظر ومن التقاط هذه الدقائق في يقظة وانفعال .

وليس كل كائن في الحياة موجوداً بالقياس إلى النفس الانسانية ، إنمــا تملك النفس ما تفطن له وما تنفعل به ، واللحظة القصيرة تطول وتضخم إذا هي امتلأت بالأحاسيس وأفعمت بالانفعالات ، والتقطت العين والنفس كل أو معظم ما تنطوي عليه من الدقائق والتفصيلات .

وكذلك يصنع المازني باللحظات ، وكذلك يملؤهـــا حتى يكظها ويزحمها بالانفعالات . وقد لا يبلغ أغوار الحياة ولا قلالهــا ، ولكنه يذرعها طولاً وعرضاً ويلحظ كل دقيق لا تأخذه العيون ، فاذا هو في حفـــل من الصور والحركات والتصورات ، وإذا هو يعيد إليك هـــذه الصور المتحركة في حرارة فائرة كأنها حية حاضرة .

تلك مزية المازني التي لا نظير له فيها في اللغة العربية كلها ، إلا ما قـــد يقع

لابن الرومي في بعض قصائده ، مع الفارق بين قيود النظم وضروراته ، وانطلاق النثر وحريته .

★ ★ ★

وبعد فماقيمة قصة«إبراهيم الثاني» التي كنا ننوي الحديث عنها،فأعدانا المازني في هذا الاستطراد !

هي قصة قلب إنساني يضطرب في عواطفه اضطراباً طبيعياً حياً صادقاً تجاه ثلاث من النساء ، كل منهن نموذج من المرأة يلتقي مع الأخريات في الجنس ويفترق في الطراز . وكل منهن امرأة طبيعية في هذا الاتجاه .

وهو قلب إنساني حافل بالتجارب مثقل بالقيود — وفي أولها قيد المعرفة الثقيل ـ ولكنه فائض الحيوية ، زاخر بالعواطف ، يضطرب بين الأثقال ، ويتلفت من هذه القيود والمؤلف الواعي يسجل كل حقيقة وكل اختلاجة في دقة كاملة ويبطن ذلك كله بالدعابة الساخرة التي لا تنجو منها شخصية من شخصيات القصة جميعاً !

و « الحدوثة » في ذاتها قد لا تكون خير ما في القصة ، ولكن الفطنة للمواقف والمشاعر ، والدقة في رسم اللحظات والانفعالات ، والانسياب الطبيعي الذي يشعرك أن الحياة تجري في الورق كما تجري في الواقع اليومي . . . كل هذه مزايا ذات شأن في تقويم القصة وتقديرها وكلها تتفق لـ « ابراهيم الثاني » أحسن اتفاق.فالحركة والملاحظة والوعي لأدق الخلجات وأخفى التصورات ، وخلع الحياة الفنية على الفتاة الذي لا يعني به الكثيرون ، يشيع الحيوية واللذة والانفعال .

ويصعب في القصة بالذات ، الاجتزاء بالمثال ، فليقرأها من يريد التطبيق على هذا المقال . . . !